السادات الذى سبق عصره

الويل لمن سبق عقله زمنه.. ولقد سبق السادات زمنه وزمانه!.

وقد سجل التاريخ بين دفتيه أنه فى تمام الساعة الثانية ظهر السادس من أكتوبر كانت الأنظار جميعها ترنو إلى الجزء الخاص بالقوات الجوية التى كان يرأسها اللواء طيار «محمد حسنى مبارك» وكانت الإشارات قد وصلت تنبئ بل تؤكد أن قوات الضربة الجوية الأولى وقوامها مائتا طائرة قد عبرت فوق ارتفاع منخفض قناة السويس وبدأت الأخبار تترى بأن طائرات هذه القوة بلغت هدفها ونفذت مهامها الموكولة إليها بنجاح فائق فاق ما كان منتظرا منها، فقد تم ضرب مراكز قيادة ومواقع ومناطق حشد القوات الإسرائيلية.

.. وعندما أزفت الساعة على الثانية وخمس وعشرين دقيقة بدأت القوارب «المطاطية» تنزل فى القناة تحت وابل من نيران العدو الذى أذهلته المفاجأة،وبدأ يفيق منها. كان على صفحة مياه القناة ما يقرب من ستمائة قارب مطاطى فى كل واحد منها ثمانية مقاتلين تشق طريقها إلى الضفة الأخرى وسط عاصفة من النيران،وكانت مجموعات الصاعقة التى اقتحمت أرض سيناء قبلها قد نجحت فى تعطيل عمل مواسير النابالم التى كانت ستحيل القناة إلى كتلة من اللهب.

.. وفى التوقيت ذاته السالف ذكره أيضا كان هناك لواء دبابات برمائى يعبر على القطاع الجنوبى من مياه القناة بالدبابات الضخمة من طراز «تى ٧٦» ووراءه المدرعات السابحة من طراز الـ «توباز» الشهير.

.. وفى اللحظة نفسها عبرت فوق القناة مجموعة من الطائرات تحمل مجموعات من قوات المظلات الذين قفزوا بقرب منطقة المضايق تمهيدا وانتظارا وإعدادا لمرحلة ثانية من الخطة.

.. وفى الساعة الثالثة كان مجموع القوات المصرية التى تمكنت من عبور الجسور إلى الضفة الشرقية قد وصل إلى ٨٠٠ ضابط و١٣٥٠٠ جندى.

.. وفى الساعة الثالثة والنصف كانت قوات المهندسين تعبر فى وحدات بحرية خاصة جهزت بالخراطيم وكانت المهمة الموكولة إليها هى فتح الثغرات فى الساتر الترابى على الضفة الشرقية من القناة هاتيك القوات التى كان لها دور مهم فى حرب أكتوبر؛ إذ عطلت القوة البحرية لإسرائيل وبثت الألغام داخل مياه البحر الأحمر ومنعت أية سفينة من دخول ميناء إيلات أو الخروج منه.

.. وفى الساعة الرابعة والنصف كان حجم القوات المصرية على الضفة الشرقية قد وصل إلى ١٥٠٠ ضابط و٢٢٠٠٠ جندى. (وفى هذه اللحظة قام الرئيس «السادات»، ومعه الفريق أول «أحمد إسماعيل» قاصدين إلى مكتب القائد العام، وطلب السفير السوفيتى).

.. وفى الساعة الخامسة والنصف كان هذا الحجم قد وصل إلى ٢٠٠٠ ضابط و٣٠٠٠٠ جندى.

(قام الرئيس «السادات» مرة أخرى قاصدا إلى مكتب القائد العام ليتلقى مكالمة تليفونية له من «بريجنيف» – لكن الاتصال لم يتم لسبب

غـير واضح،وقد انتهـز الرئيس فرصة وجوده فى مكتـب القائد العام فاتصل ببيته بالجيزة وبـ «محمد حسنين هيكل» فى مكتبه بالأهرام).

.. وفىالسـاعة السادسـة والنصف كانت عملية فتـح الثغرات فى السـاتر الترابى قد حققت جزءا كبيرا من مهامها،وبدأ تركيب كبارى العبور،وراحت الدبابات تتقدم على أول كوبرى تم تركيبه.

.. وفى السـاعة العاشـرة مسـاء كانت قوات المهندسـين التى كان يترأسها الشهيد «أحمد حمدى» قد تمكنت من فتح ٦٠ ثغرة فى الساتر الترابى، وأزاحـت بالتجريف ما حجمه ٩٠٠٠٠ متر مربع من الرمال بفكـرة الرائد «اللواء (باقى زكى يوسـف)» صاحب الفكر العبقرى فى تدمـير السـاتر الترابى على حافـة القناة بطلمبـات المياه،ووصل عدد الكبـارى الثقيلـة التى أمكن تركيبها إلى ثمانيـة، بالإضافة إلى أربعة كبارى خفيفة،و٣١ معدية كانت تتحرك بسرعة وقوة من ضفة إلى ضفة حاملة معها المزيد من القوات والمعدات.

.. وعندمـا حل منتصف الليل تمامـا كانت هناك خمس فرق كاملة من المشـاة والمدرعات على الضفة الشرقية لقناة السويس، وكانت معظم مواقع خط بارليف الحصينة قد حوصرت،ونصفها تم اقتحامه.

(وكانت الجبهة السـورية تعيش مشـهدا مماثلا، ففى هذا الوقت كان الطيران السورى قد قام بضربة أولى،ثم جرى تمهيد بالمدفعية،وفى الساعة الرابعة كانت المدرعات السورية قد تخطت خنادق التحصينات الإسـرائيلية فى الجولان – وقبل أن ينزل الظلام كانت تتقدم فى اتجاه مدينة القنيطرة عاصمة الجولان).

.. كان الرئيس «السادات» فى الساعة السابعة تماما،وكل القادة الذين تواجدوا متحلقين حوله – الجميع فى حالة من النشوة لا تكاد تصدق. وقد تأكدوا أن أخطر عملية فى الحرب كانوا يتحسبون ويتوجسون من خسائرها قد تمت بنجاح فاق خيالهم.

.. وكانت أروع لحظة فى حياتهم هى التى تلقوا فيها أول تقدير مبدئى عن حجم الخسائر المصرية فى العملية حتى الآن.

.. وكانت الخسائر فى عملية العبور هى استشهاد ٦٤ رجلا إلى جانب ٤٢٠ جريحا وقد أصيبت ١٧ دبابة،وتعطلت ٢٦ عربة مدرعة وكان ذلك لا يصدق؛ فقد كانت كل التقديرات العلمية عن الخسائر المحتملة فى عملية العبور تصل بها إلى عشرات الألوف من الشهداء والجرحى. وكان الرئيس «السادات» ومن حوله القادة يتبادلون النظرات وهم لا يكادون يتصورون واقع ما جرى أمام عيونهم. كان بكل المعايير ضربا من المعجزات. وأبدى الفريق أول «أحمد إسماعيل» ملاحظة واحدة قال فيها إن «الأولاد يتقدمون على الكبارى كما لو أنهم يقومون بعملية تدريب. وكأن كل هذه النيران من حولهم مجرد مناورة بالذخيرة الحية».

.. وفى الساعة السابعة مساء،كان الرئيس «السادات» قد اطمأن بأكثر مما راوده فى أوسع أحلامه جموحا – إلى أن هناك شيئا عظيما تم تحقيقه. وقد خطر بباله أنه يستطيع أن ينتقل الآن من مقر قيادته العسكرية،ويعود إلى قصر الطاهرة ليتابع من هناك آثار الساعات

التى عاشــها فى المركز رقم «١٠» – على مصر وعلى العالم العربى، وفى الدنيا الواسعة.

.. بعد أن فــرغ العقيد «عبد الرؤوف رضا» من عرض ما لديه، غادر الاجتمــاع. وعاد الرئيس «الســادات» إلى فكرة إعداد بيــان يلقيه على الشعب المصرى والعربى.

كتب الأستاذ «محمد حسنين هيكل» يقول:

– إن صيحة «الله أكبر» التى انطلقت بها حناجر الجنود على جسور العبور كانت تكفينا صلاة ودعاء يشــارك فيها كل المؤمنين، وهى فى كل الأحوال تغنينا عن كل الأحلام بما فيها «أحلام الصالحين».

.. وعنــد منتصف الليل كانــت الأنباء مازالــت تتعاقب على قصر الطاهرة، وكانت كلها أنباء سعيدة، وكان القصر مازال يعيش على ذرى أمواج نشوانة بالفرح الغامر والسعادة الفائقة.

.. مــن الصعب على أحد – مهما بلغت درجة قربه من الحوادث – أن ينفذ بتحليل دقيق أو قريب من الدقة للمشاعر والأفكار التى تحركت وتدافعت فى عقل وفكر الرئيس «الســادات» فى تلك الليلة الحاسمة من تاريخــه وتاريخ مصر، ومع أن التاريخ أيام متصلة يترتب اللاحق فيها على الســابق دون فجــوة أو فراغ – فإنه من المحقــق أن هناك تجارب خاصــة فى حيــاة الناس يمكن أن يكونــوا بعدها مختلفــين عما كانوا قبلها، والتاريــخ حافل بنماذج كثيرة لهــذه اللحظات الفاصلة والفارقة فى حياة البشر، سواء كانوا على القمة فى بلادهم، أو من السفح والقاع.

.. وفــى ليلة ٦ – ٧ أكتوبر ،كان «أنور الســادات» فى لحظة فاصلة وفارقة من حياته شكلت – على وجه القطع – مفترق طرق.

● قبلهــا كان واحدا من زعمــاء العالم العربى مثــل غيره كثيرين وبعدها أصبح نجما يلمع فى آفق عالٍ وشاهق.

● وقبلهــا فــإن رجلا مثل «هنــرى كيســنجر» – كان يتهرب منه ويصفه بأنه «بهلوان سياســى» – وبعدها لم يعد فى مقدور أحد – بمن فيهم «هنرى كيسنجر» – إلا أن يعترف له بأنه «داهية سياسى».

● وقبلها كان حاكما بشرعية مستعارة من سلفه «جمال عبد الناصر» – وبعدها فإنه أصبح يمتلك شــرعية مستقلة يبدأ بها عصرا جديدا من حكمه.

● وقبلها لم يكن فى تاريخ العرب الحديث انتصار عســكرى واضح – وبعدها فإنه ســجل فى تاريخ العرب نصرا عســكريا على مستوى لم يكن ينتظره أحد.

● وقبلها كان رجلا تكررت وعوده واعتبرت كلها جوفاء وفارغة – وبعدها فإنه استطاع أن يحقق ما وعد به،وزاد عليه.

● وقبلها كان يتصرف وفى إحساسه أن «جمال عبد الناصر» كان رجلا أكبر منه – والآن فقد داخله الإحســاس بأنــه أصبح أكبر من «جمال عبد الناصر». فهذا الذى تحقق على يديه اليوم لم يحدث ولا لـ «جمال عبد الناصر».

.. وقبلهــا وقبلهــا كثير، وبعدهــا وبعدها كثير أيضــا، وما قبل مختلف دوما عما بعد!

.. وكان ذلك كله ماثلا فى ذهنه تلك الليلة، وقد عبر عنه بالنشوة، وربما استطاع تحليل بعضه، وأحس بأثر البعض الآخر دون تحليل – لكنه فى نهاية يوم طويل ومرهق، يدخل إلى فراشه ليلا وقد أصبح على قمة العالم – وقد أصبح مغربه ومشرقه مأخوذين بما حدث.

.. كان هو الآخر مأخوذا بما حدث، وكان ما رآه وعاشه طول اليوم بالفعل أشبه ما يكون بانفجار قنبلة ذرية، وقد كان قراره هو الذى فجرها، وهذه حقيقة لا يملك أحد أن يجادل فيها. ولقد كان يمكن رد هذا الانفجار الذرى إلى أسباب عقلانية – لكن ذلك لم يكن شاغله تلك الليلة.

.. وإنما كان شاغله ما يراه أمام عينيه: فلقد تم العبور العظيم – وهو الآخر عبر من مكان إلى مكان، ومن ضفة إلى ضفة، ومن حال إلى حال.

.. ولقد اختلط العبوران معا، فأصبح عبور القوات عبوره.. وعبوره عبور القوات. وفى واقع الطبيعة البشرية فإن ذلك كان محتملا.. وربما كان مفهوما.

.. ثمة جانب مهم فى شخصية السادات أغفله جُل من كتبوا عنه عدا الدكتور «نبيل راغبً» الذى ألف كتاب «أنور السادات رائدا للتأصيل الفكرى» فأورد فى متن كتابه ما دبجته يراعة السادات فى مؤلفاته ودون من بين ما دون القصة القصيرة التى كتبها السادات بعنوان «ليلة خسرها الشيطان» إذ قال:

.. «أخذ قرص الشمس يهبط رويدا رويدا، فتناثرت من تحته ظلال رماديـــة راحت تغمر سماء القرية «العابدية» معلنة غروبا جديدا وهذه سنة الله... فلا بد أن يسير الكون ما بين شروق وغروب ونور وظلام نحو النهاية التى أرادها له خالقه القادر القوى الرحمن..

.. وموكب الغروب فى القرية مهرجان رائع يتكرر كل يوم، فبينما تزدحم الطرق الزراعية بجمع العائدين من كفاح اليوم الطويل فى الأرض الطيبة رجالا وعددا وماشـية وأنعاما.. نرى القرية وقد اكتست بدخان داكن يتعالى فى هدوء السـماء، فوجبة الطعام الرئيسـية لا بد أن تكون فى اسـتقبال الرواد العائدين، شـهية بقدر ما عانوا وبقدر ما يسمح به دخل البيت ومهارة سيدته شـريكة الكفاح»... إلى ما جاء بهذه القصة والتى تفصح عن موهبة أدبية فذة كامنة فيه، بان فيها اهتمام السادات الفائق باستخدام الرمز والوصف والتجسيد مما يدل على «الحس النقدى الرفيـع» الذى يتمتع به السـادات الذى كان يدأب علـى قراءة الكتب الثقافية المتنوعة، والقصص التى ألفهـا كبار الروائيين فى العالم ومنها (حد الموسى) لـ «سمرست موم».

.. وفى ١١ أكتوبر ١٩٥٥م كتب السـادات مقالا على صفحات مجلة «التحرير» بعنوان «السبت العظيم» قال فى مقدمته:

«مصـر إذا ما راجعت أيامها لم تلق للسبت العظيم مثيلا»

هل كان السادات يتنبأ بيوم السبت ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣م يوم ميلاد مصر من جديد.؟!

.. ويوم النصر المبين.. بل بيوم وفاته فى ٦ أكتوبر ١٩٨١م؟!.

.. كمـا كتب قصيدة سياسـية بعنوان «أخى فى الشـرق» كما أن له ثمانية مجلدات فى الفكر السياسى منها مؤلف فى السيرة الذاتية وهو كتاب (البحث عن الذات).

.. قليلون هم الرؤسـاء والزعماء الذيـن أفاء الله عليهم بنعمة الفكر الأدبى ومنهم «بنيامين فرانكلين» و «وينستون تشرشل» و «نهرو» وكان السادات لاشك من بين هؤلاء.

.. كان أديبا.. مفكرا.. حصيفا.. وفيا.. كما كان قائدا للعبور عظيما.

.. أثبتـت تدويناته المتعلقة بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر أنها كانت كثيرا ما تفيض بالمشاعر الطيبة تجاهه.

.. يقول السـادات فى لقائه بوفد المؤتمر الإسـلامى فى القاهرة فى ١٤ سـبتمبر ١٩٧٢م: «لماذا الحقد والفرقة والتشـتت؟ لن نسـتطيع أن نبنـى بالحقـد أبدا.. دعونا نضـرب كل هذا ونعود لجوهـر عقيدتنا: الحب والصفاء والأخوة والقوة التى تتولد بالإيمان وبالثبات وباليقين.. دعونـا نعـود إلى جوهر رسـالتنا: الإيمان ما وقر فـى القلب، الإيمان أخوة، محبة، يقين، غيرة على قيمنا وعلى حياتنا وأرضنا أيضا».

.. كان السـادات وفيا لوطنه الذى سـجن وطرد من وظيفته بسـبب حبـه له ولزملائه الذيـن طالما ذكروا وفاءه النـادر إليهم حتى إن أحد كبـار رجال القوات المسـلحة قال: «لولا وفاء السـادات لى فى محنتى لانتهت حياتى».

.. وقالت شـقيقته الصغرى السـيدة «نفيسة السـادات» فى برنامج تليفزيونى:

«إنه كان دائم الوفاء لأمه وشـقيقاته ولإخوته لا ينقطع عن زيارتنا أو السؤال عنا أو البحث عما يصادفنا من متاعب الحياة يعمل دوما على إزاحتها من طريقنا.

.. كما تبارى أهالى ميت الكوم «أهل بلدته» بالإشادة بوفائه لهم والعمل الدؤوب على سرعة الاستجابة إلى مطالبهم. ومما ذكره فى هذا الصدد أنه كان يدأب إلى الذهاب إلى المساجد لتأدية فريضة الصلاة ولا يغادر مسجدا منها إلا وكان هو آخر من يخرج من بيت الله بعد أن يصافح المصلين فردا فردا.

.. كان جـم الأدب.. جـم التواضع.. يراعى الله فـى كل خلجة من خلجاته أو سكنة من سكناته.

وإذا كان المأثـور عن الفيلسـوف الألمانى «كانت Kant» أنه عرف التنوير بأنه: هجرة الإنسان من اللارشد إلى الرشد.

إذا كان ذلك كذلك. وهو كذلك. فهكذا كان أنور السـادات فقاد سفينة بلاده بعقل نيِّر وقلب سليم وثاب من اللارشد إلى الرشد فى بحر لُجى بين الصخور الصلبة الصلدة تحوطها الأخطار من جوانبها تتهددها بالسـقوط فى أعماق اليم ودثر إسـرائيل بدثـار الأحزان التى ما فتئت تحوطها من جميع الأركان، وحقق لشعبه مجدا ونصرا مؤزرا تحدث به الزمان.

المستشار

محمد مرشدى بركات

الأسكندرية فى ١٨ / ٩ / ٢٠١٣